آفة اللغة هذا النحو ...

أذكر أن الطالب الناشىء كان يدخل الأزهر فيجد أول مايقرأ من كتب النحو شرح الكفراوى على متن الآجرومية ، وهذا الكتاب شديد الكلف بالأعراب ، يأخذ به المبتدىء أخذا عنيفا قبل أن يعلمه كلمة واحدة من اقسام الكلام ووجوه النحو . يفتحه الصبي المسكين فلا يكاد يقول (بسم الله الرحمن الرحيم) حتى يصيح به الشارح أو المقرر أن انتظر حتى أعرب لك البسملة ! وهنا يسمع لأول مرة بحرف الجر الأصلي والزائد ، ويعلم بطريقة حسابية أن له فى البسملة تسعة أوجه نشأت من رفع الرحمن ونصبه وجره ، مضروبة فى رفع الرحيم ونصبه وجره ، ثم يمضي المعرب فى إعراب هذه الأوجه بالتخريج العجيب والحيلة البارعة حتى تقف قدرته عند وجهين لايجدلها مطلعا ولا مأتى فيمنعهما ، وهما جر الرحيم مع رفع الرحمن أو نصبه ؛ ثم يخشى بعد ذلك الجهد أن يعبث النسيان الساخر بهذه الدقائق الغالية فيسجلها فى هذين البيتين وهما :

أن ينصب الرحمن أو يرتفعا فالجر فى الرحيم قطعا منعا
وأن يجر فأجز فى الثانى ثلاثة الأوجه خذ بيانى !

يأخذ الطالب هذا البيان على العين والرأس ثم يخطو خطوة فتقع عينه على العنوان الأول في الكتاب وهو (باب الأعراب) ! وهنا يقول له الشارح : قل باب الأعراب بالرفع أو باب الأعراب بالنصب أو باب الأعراب بالجر فلن تعدو وجه الصواب فى أى حالة !! فالرفع على أن (باب) خبر لمبتدأ محذوف تقديره : هذا باب الأعراب ، أو على أنه مبتدأ والخبر محذوف تقديره : باب الأعراب هذا محله ، والنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف تقديره : اقرأ باب الاعراب ، واما الجر فعلى أنه مجرور بحرف جر محذوف تقديره : أنظر فى باب الاعراب !! ثم يصعد الطالب فى معارج النحو على كتاب من هذا الطراز بعد كتاب ، حتى يتسنم ذروته ، وليس في ذهنه مذهب صحيح ولا قاعدة سليمة . وماذا تنتظر من مثل هذا الخلط غير أفساد الذوق وأضعاف السليقة ، وطبع القرائح على هذا الغرار من التفكير العابث والتقدير الهزيل ؟

جنى هذا النحو الفوضوى على الناشئين فى معاهده فعمى عليهم وجوه الأدب ، ثم فتح لهم من الجدل اللفظى والتخريج اللغوى أودية وشعابا يقصر دون غايتها الطرف . فعندهم كل صواب يمكن أن يخطأ ، وكل خطأ يمكن أن يصوب ، وكل كلام على أى صورة يجب أن يفسر أو يؤول ! اخرق القواعد ، واقلب الأوضاع ، وانطق اللفظ على أى حركة ، واستعمله فى أي معنى ، فأنك واجد ولا شك من هؤلاء من يلتمس لك وجها من وجوه (البسملة) السبعة ، أو مخرجا من مخارج (باب الأعراب) الثلاثة !

عرفت أيام الطلب شيخا قد ابتلى بهذه الشعوذة ، فخشا جسمه بهذا العبث النحوى حتى ليرشحه من جلده ، ويرعفه من أنفه ، ثم يتكلم فيتعمد اللحن القبيح ، فاذا انكر عليه منكر انفجر عن هذا الهوس فذكر لكل خطأ وجها ، ولكل وجه علة ، ثم يقول فى تفيهق وزهو : (لولا الحذف والتقدير ، لفهم النحو الحمير) وسمعت ان شيخا ضعيف البصر ممن يسوغ فى فهمهم كل كلام ، قرأ قول الرسول (ص) « المؤمن كيّس فطِن » فصحفها : المؤمن كيس قطن ! وراح يحملها على التشبيه فيقول : معناه أن المؤمن ابيض القلب كالقطن : وزعموا ان شيخا كبيرا كان يفسر كتاب الله وهو لايحفظه ، فرأى قوله تعالى: (اذيبايعونك تحت الشجرة) فقرأها أذ ثبأ يعونك ، . . وكتب فى تعليلها وتأويلها أربع صفحات من القطع الكبير بالحرف الصغير !! . . وحدثوا ان ممتحنا من هذا النمط ، كتب فى ورقة طالب راسب : « لايصلح » ثم ظهر لأمر خارج عن ارادته أنه ناجح ، فكتب تحت هذه الجملة : « قولى لايصلح ، صوابه يصلح ولا زائدة » والاحاديث مستفيضة عمن نكبوا بهذه الدراسة دون أن يكون لهم من المنطق ضابط ، ولا من الطبع دليل

* * *

إن ما نجده فى النحو العربى من التناقض والشذوذ وتعدد الأوجه وتباين المذاهب انما هو أثر لاختلاف اللهجات فى القبائل ، فقد كان رواة اللغة يرودون البادية ويشافهون الاعراب ، فيدونون كلمة من هنا وكلمة من هناك ، فاجتمع لهم بذلك المترادفات والاضداد ، وتعدد الجموع والصيغ للفظ . واختلاف المنطق فى الكلمة ، والنحاة مضطرون الى أن يمطوا قواعدهم حتى تشمل

هذه اللحون ، وتستوعب تلك اللغات ، فاغرقوا القواعد فى الشواذ ، وأفسدوا الاحكام بالاستثناء ، حتى ندر أن تستقيم لهم قاعدة ، أو يطرد عندهم قياس . وزاد فى هذه البلبلة أن أسرف أعاجم النحاة فى التعليلات الفاسدة ، والتقديرات الباردة ، منذ نهج لهم ذلك النهج ابن ابى اسحق الحضرمى ، فجعلوا النحو ضربا من الرياضة الذهنية ، والقضايا الجدلية ، التى لايصلها باللغة سبب ، ولا يقوم عليها فن ولا أدب .

ليس من شك فى ان دراسة النحو على هذا الشكل تفيد فى بحث اللهجات فى اللغة ، ودرس القراءات فى القرآن ، ولكن دراسته لضبط اللغة وتقويم اللسان امر مشكوك فيه كل الشك . نحن اليوم وقبل اليوم انما نستعمل لغة واحدة ، ونلهج فى الفصيح لهجة واحدة ، فلماذا لانجرد من النحو القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة ، وتقوم تلك اللهجة ، وندع ذلك الطم والرم لمؤرخي الادب ، وفقهاء اللغة ، وطلاب القديم ، على الا يطبقوه على الحاضر ، ولا يستعملوه فى النقد وانما يلحقونه بتلك اللغات البائدة التى خلق لها وتأثر بها ، فيكون هو وهى فى ذمة التاريخ وفى خدمة التاريخ ؟

لقد صنعت المدارس المدنية شيئا (١) من ذلك ، فنجحت بعض النجاح فى تجريد « نحو » عام يكاد يسير فى وجه واحد ، ولذلك لاتجد المتخرجين فيها يتقارعون فى النقد بالنحو القديم ، ويقصرون المناظرة على هذا الجدل العقيم . ولكن فريقا ضئيل الشأن من بقايا الثقافة القديمة فى مصر والعراق ، لايزالون يظنون انا مجبرون على اخضاع السنتنا واقلامنا لتلك اللهجات البالية ، فيقعد بهم تخلف الذهن وضعف الملكة وكلال الذوق ، عند هذه البقايا الأثرية ينبشون عنها قبور البلى ، ثم ينثرونها كالشوك فى طريق الادباء الموهوبين ، ويتبجحون بأن هذا اللغو هو اللغة ! !

يقرأون الكتاب القيم للعالم الباحث ، أو للاديب المجدد ، فيعمون عن خطر البحث في نفسه ، وبجهود الباحث فى بحثه ، ولا يرون الاحرفا وقع مكان حرف ، أو جمعا لم يجدوه فى كتب الصرف !

لانريد أن نسمي الاسماء ولا أن نضرب الامثال ، فحسب الشذوذ أن يدل على نفسه ، وحسبنا ان نهيب بالعلماء والادباء أن يشذبوا هذه الزوائد من لغتنا لتقوى ، وينحوا هذه الطفيليات عن ادبنا لينتعش .

الزيات

(١) تقول (شيئا) لان الكتب المدرسية لايزال فيها امثال الاسم الواقع بعد لاسيما وتابع المنادى والوجوه الخمسة فى المنادي المضاف الى ياء المتكلم !

رأى فى أوراق الورد

للآنسة عفيفة سيد

قلنا في العدد الحادى عشر فى معرض الرد على الآنسة الفاضلة عفيفة « ان في الادب العربى الحديث طرفة من هذا النوع الذي تريدين « الرسائل الغرامية » هى آية من آيات الفن في دقة الصنعة ، ولعلها لاتقل جمالا عن تماثيل « فدياس » وصور « رفائيل » ولكنها كهذه التماثيل وتلك الصور ينقصها شيء واحد هو كل شيء : ذلك هو الروح »

اردنا بتلك الطرفة اوراق الورد (وقد كتبناها سهوا رسائل الورد) للاستاذ الرافعى . ثم رجونا من الانسة عفيفة ان تقرأها وتبدى رأيها فيها ، فقرأتها ثم بعثت الينا بهذه الرسالة

سيدى الاستاذ

ما كان الأمر يحتاج الى رجاء « فرسائل الورد » او « اوراق الورد » اسم مشوق يستميل القلب ويستهوى النفس . ومن ذا الذي لا يسرع الى اوراق الورد لتبهج قلبه ، وتزيل كربه ، وتهذب احساسه ، وتغذى خياله ؟

غير انى لم اكد أطالع رسالتين من رسائل الورد حتى عرفت سبب الرجاء ، وقلت لعل الامر كان يحتاج الي الف رجاء . اذ وجدت ان من العسير علىّ بل من المتعذر أن امضى فى مطالعتها ، وكدت ان ابعث اليك برأيي فيها مكتفية بما طالعت ، غير أني وجدت من الاسراف ان احكم على الكتاب بقراءة رسالة او رسالتين ، فمضيت فى المطالعة والله يعلم كم مرة انقبضت نفسى ، وكم مرة اعترانى الملل ، حتى زهدنى فى ان ادلي برأيي فيها

ولعلك ياسيدى الاستاذ لو كنت دفعت بى الى الوراء سبعمائة عام مضت لوجدت في « البهاء زهير » صورة صادقة لنفسى ، ومرآة جلية لعواطفى وشعورى ، بل لذكرنى لفظه الرقيق ومعناه الدقيق رقة طبيعة مصر وعذوبتها ، بل لوجدت فى مقطوعاتها الحية مايجعلني ان اتخيل أن كاتبها معاصر لنا أكثر من كثير من معاصرينا الموجودين

حاولت ان اقف على الفكرة التى تدور حولها « أوراق الورد » فلم اوفق ، فهى رسائل مفككة لايتصل بعضها ببعض ، لاتترجم عن عواطف صحيحة ولا عن شعور صادق .